الفصل الرابع

التربيـــة الهنديـــــة

أبعاد الحضارة الهندية :

من الأقوال التى أصبحت تتردد على ألسن الجمهرة الكبرى من المتحدثين حتى صارت من مسلمات العصر الحالى أن عالمنا قد أصبح قرية صغيرة ، مريدين بذلك أنه على الرغم من التباين فى الأجناس واللغات والظروف الجغرافية ، والميراث التاريخى والمذاهب والأديان ، والمصالح ، فإن تعدد وسائل الاتصال وتوافرها وكثرتها وما تتميز به من سيولة وسرعة تدفق ، وكأنه قد ألغى كل هذه التباينات ، بحيث يبدو العالم وحدة حضارية واحدة ٠

لكننا لو رجعنا بالذاكرة التاريخية بضعة آلاف من السنين ، ووجهنا الأنظار إلى هذه البقعة من العالم التى اصطلحنا على تسميتها بالهند ، فسوف نطالع مشهدا ، له مقدمات تختلف عن تلك التى سقناها لعالم اليوم فى الفقرة السابقة ، لكن النتيجة ، ربما ، تتشابه إلى حد كبير ! فشبه القارة الهندية مخزون بشرى وطبيعى ضخم ، متعدد الصور والأشكال ، متباين الألوان والمشارب ، كأنه قارة كاملة ، ومع ذلك فنحن نتحدث عنها كوحدة حضارية واحدة تحتل صفحات مشرقة وبارزة فى سجل الحضارة الإنسانية ، ولها تربيتها المتميزة التى لا تخطئها عين ، مع أنها لم تكن تعرف هذا الذى نعرفه اليوم من حيث عبقرية الاتصال المعاصر (١)٠

من الناحية الجغرافية ، فالهند تمتد من الشمال عند سلسلة جبال الهمالايا ، ومن الغرب عند جبال الهندكوش وسليمان ، حيث تقع أفغانستان وإيران ، وتمتد إلى الجنوب فى شبه جزيرة يقع بحر العرب فى غربها ، وخليج البنغال فى شرقها وسيلان فى طرفها الجنوبى ، ويتجه الإقليم الشمالى منها إلى الشرق ، حتى جبال آسام ٠

وفى الهند أنهار عظيمة ، بعضها ينبع من الشمال ، حيث الهملايا ، ويصب فى بحر العرب ، مثل نهر السند ، أو نهر الإندوس ، وفى مجراه الأعلى تمده روافد ، لا سيما التى تجرى فى البنجاب ، أكثر مناطق الهند عمرانا ، وبعض الروافد ينبع من كشمير ٠ ويعتبر نهر السند من أطول أنهار العالم ، حيث يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ك٠م ، ومنها نهر " الكنج " ، وهو النهر الذى يعتبره الهندوس مقدسا ، ومن هنا يغتسلون فى مياهه ، ليتطهروا من ذنوبهم ، ويتدفق من جبال الهملايا ، من ارتفاع أربعة آلاف متر ، ويعود الصعود إلى هذا المكان من أعظم القربات عن الهندوس ، ومنهانهر " جمنا " ، وهو ينبع من الهملايا أيضا ، ونهر " براهمابترا " الذى يأتى من الشمال الشرقى ، حيث جبال الهملايا وآسام ، ويجرى فى البنغال ٠ وثمة أنهار أخرى فى الوسط والجنوب تصب فى خليج البنغال ، أو بحر العرب ، وما عدا هذه الأنهار ، فإن البلاد غنية بالأمطار والمياه الجوفية ، مما يساعد - مع سعتها ، وكثرة سكانها ، وتنوع تضاريسها - على إبداع حضارى متميز ، حافل بصور وأشكال من الثراء المعرفى والمادى والروحى (٢) ٠

من أجل كل هذا ، وهناك غيره مما لا يتسع المقام لبيانه ، أصبحت الهند تمتاز بخصوبة أوديتها ، وتعدد نباتاتها وكثافة غاباتها وتعقد مسالكها ، وكثرة معارجها ومصاعبها ومهابطها ، وتباين أجوائها ومناخاتها ، ووفرة التناقض الطبيعى فى أرضها وسمائها ، فبينما نرى فيها جبالا شاهقة تتجاوز السحاب سموا ، وهضبات متفرقة يفصل بعضها عن بعض هوى سحيقة وحفر طبيعية عميقة ، وتلالها تتخللها من جهة كثبان ضخمة ، وتعترضها من الجهة المقابلة صخور عظيمة النتوء ، صعبة الاجتياز ، إذا بنا نرى إلى جانب هذا أودية مبسوطة ومروجا باسمة تتباهى بما تزدان به ألوان الزهور وأفانين الثمار والبقول ، وكذلك جوها لا نكاد نحس بدفئه وحرارته حتى نفاجأ ببرده ورطوبته ، ولكن الحرارة هى العنصر الرئيسى السائد فى بلاد الهند ، فتلك الحرارة التى أضعفت الأبدان وقصرت الشباب وأنتجت للناس هناك دياناتهم وفلسفتهم المسالمتين ، فليس يخفف عنك هذه الحرارة إلا أن تجلس ساكنا لا تعمل شيئا ، ولا ترغب فى شىء (٣)٠

وكان لهذا التعدد والتباين فى كل شىء ، أثرا بارزا فى عقلية الهنود٠٠

وقد استطاع التاريخ أن يتغلغل بالمدنية الهندية فى أغوار الماضى مدى ثلاثين قرنا قبل الميلاد ، إذ يحدثنا أن تلك الأودية كانت فى ذلك العهد مأهولة بقوم من الجنس السامى ، لهم مدنيتهم وتفكيرهم ، وأن هؤلاء القوم قد أسهموا فى بناء صرح المدنية العالمية بنصيب وافر ، وكان لهم فى تاريخ الفكر البشرى مجهود جبار ظل مجهولا أو غامضا على الأقل حتى تم الكشف عنه (٤) .

فقد كانت الهند ، قبل الفتح الآرى ، قبائل متفرقة ، أو شعوبا صغيرة ، لكل شعب حاكمه وقوانينه ، وعقائده وعاداته ، وأن الوحدة السياسية والعمرانية إنما وجدت فيها على أيدى أولئك الفاتحين .وكانت أكبر مجموعة من سكان الهند قبل هذا الفتح ، " الدرافيديين " ، ويطلق هذا الإسم اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تعيش بجنوبى الهند ، ويفترض أنهم من سلالة درافيى ما قبل التاريخ ويتميزون بخصائص زنجية. وقد احتل الآريون تلك الأصقاع المتمدينة وطغوا على مدنيتها وبياناتها طغيانا محاها من صحائف أذهانم الخاصة ، وإن كان لم يستطع أن يمحوها من صحائف الوجود ، بل ولا من أذهان العامة والجماهير . وتدل دراسة الديانة الهندية بوجه عام على أن الهند هى ، بعد مصر ، البقعة الثانية التى يصح أن يطلق عليها اسم أرض الآلهة ، والتى لا يفوقها فى تعقد مشاكلها وكثرة آلهتها وصعوبة تحديد اختصاصاتهم وسعة الخيال وخصوبته فى تصوير المعبودات إلا مصر (٥) .

وقد استطاعت الاكتشافات الأثرية الحديثة أن تحدث زلزالا كبيرا لسابق معلوماتنا عن الحضارات الشرقية القديم ، وهذه الاكتشافات التى نشير إليها ، هى التى قام بها منذ سنة ١٩٢٤ " سير جون مارشال Sir John Marshall " ، وبعض رفاقه الهنود فى موهينجو - دارو Mohenjo-daro ، وهارابا Harappa ، على نهر الهندوس الأدنى . هذه الاكتشافات ألقت الضوء على بقايا مجموعة من المدن ، أقيمت الواحدة منها على أنقاض غيرها . وعلى قدر ما نعلم ، اكتشفت خمس من مثل هذه المدن ، ومن المحتمل أن يكتشف كثير غيرها فى الوقت المناسب . وتقدم المبانى كل دليل على أنها كانت تبلغ عدة طوابق فى ارتفاعها وهناك مئات منها ، توحى بحياة مدنية ناجحة مماثلة تماما لتلك الحياة التى ازدهرت فى " أور " . أما ما اكتشف داخل المبانى ذاتها ، فهو مع ذلك أكثر طرافة ، فالفخار والمجوهرات والأثاثات والأختام المنقوشة

والأسلحة والآلات والدمى ، كل هذه لا توجد فقط بكمية وفيرة ، بل فى جودة لم يكن لها مثيل فى أغلب الأحوال (٦) ٠

ومن الغريب حقا أن ما اكتشف فى الطبقات السفلى قد كشف عن عدد من الأشياء الراقية ، بالحكم عليها بالمعايير الفنية ، تفوق تلك التى وجدت فى الطبقات العليا منها ، ولكن فيما يتصل بحقيقة أن بعض الأسلحة كانت من الحجر وبعضها من النحاس ، وغيرها من البرونز ، فلابد أن هذا سيدفعنا إلى التشكك فيما إذا كانت تقسيماتنا التقليدية لأزمنة ما قبل التاريخ قد روعيت بدقة ٠ وفى اعتقاد " سير جون مارشال " أن مدن " موهينجو – دارو " تنتمى على الأقل إلى الألف الثالثة ق٠م ، وربما إلى الألف الرابعة ٠ أما عن الوقت الذى استغرقته لتنمو فيه وتصبح مدنا مزدهرة فهذا ما لا علم لنا به ٠ والافتراض هو أن أصلها لابد أنه ينتمى إلى فترة قد أنكرنا ، إلى حد ما ، أن نسميها فترة حضارية ٠ ويبدو مؤكدا بمعنى آخر ، أن " موهينجو – دارو " كانت مسرحا لتجارة نشطة ولتجارة غير مشروعة ولحياة كريمة فى فترة خصصها المصريون لملوك أسطوريين مثل العقرب Scorpion ، وهذا يضع " موهينجو – دارو " مؤقتا على قمة حضارات العالم (٧)٠

كانت هناك إذن حضارة قامت فى وادى السند فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، على وجه التقريب ، وبحلول الألف الثانية قبل الميلاد احتلت مساحة تقدر بنحو ثلث مساحة الهند ، حيث امتدت شمالا إلى جبال هملايا ، وجنوبا إلى مشارف بومباى ، تقريبا ، ومن الساحل الغربى باتجاه الشرق إلى دلهى (٨) ٠ومن الطبيعى افتراض أن الجوانب المادية المتطورة فى حضارة السند كانت تجد ما يعادلها فى نسق متطور من الفكر الاجتماعى والدينى ، كما كانت تجد فى ما يعادلها أو قريبا منها فى أنحاء أخرى من الهند ، وبخاصة فى البنغال شرقا ، وفى الجنوب الذى كان ملتقى قديما لحضارة جنوبى الجزيرة العربية ، ولجميع البلدان والجزر المطلة على الخلجان الممتدة من المحيط الهادى والهندى ٠

وإذا كان الآريون قد غزوا الهند ، فمن أين قدموا ؟ الرأى المحتمل أن موطنهم كان فى بلاد فارس ، وبالتحديد هو إريانا فايجو Airyana vaejo والتى تعنى " موطن

الآريين " ، فى منطقة متاخمة لبحر قزوين ، وكان دخولهم الهند حوالى سنة ١٦٠٠ق٠م، وقد استغرقوا وقتا طويلا مخترقين هذا البلد الشاسع ، لكنهم بتعقبهم الأنهار العظيمة استطاعوا فى النهاية أن يسيطروا على جزء كبير منها ٠ ومن المرجح أن تسميتهم بالآريين كان القصد منه أن يعلنوا فكرة السمو الجنسى والطبقى ، خاصة وأن ما صادفوه من نجاح فى غزوهم قد عزز هذا ودعمه ، ذلك أن الآرى Aryan مشتق من الكلمة السنسكريتية التى تعنى " النبيل " ٠ ونظرا لما كانوا عليه من أقلية ، لكن تتميز بالقوة ، حرصوا على نقاء جنسهم ، فمنعوا التزاوج بغيرهم ، مما رسخ من ذلك النظام الاجتماعى القائم على التفرقة الاجتماعية استنادا إلى السلالة أو الجنس ٠(٩)

وقد كان غزو الآريين للهند إبان تحركات الشعوب الناطقة باللغات الهندو - أوربية فى جميع أنحاء غرب آسيا وأجزاء من منطقة البحر الأبيض فى الألف الثانية ق٠م ٠ ولقد كانوا متفوقين فى العديد من المميزات العسكرية الحاسمة على السكان الأصليين فى شبه القارة ، فكانت لديهم أسلحة برونزية متفوقة ، ثم امتلكوا بعد ذلك بوقت قصير أسلحة حديدة وعربات تجرها الخيل ذات مكابح للعجلات ، ومن ثم كانت أخف وأسرع من عربات السكان الأصليين ذات العجلات الجامدة والتى تجرها الثيران ٠ لقد كانوا شعبا قادرا على الحركة بسهولة ، عسكرى الطابع مجهزا لغزو أى شعب زراعى وحكمه ، فضلا عن أنهم هم أنفسهم كانوا منخرطين فى الزراعة ورعى الماشية (١٠) ٠ على أن حضارة وادى نهر السند التى سبقت الآريين كانت من جوانب كثيرة أرقى منهم ، ومن الجائز أن الهند لم تستعد حضارة مدينة تضاهيها من حيث المستوى والنطاق إلا بعد حوالى ١٥٠٠ سنة من انهيار تلك الحضارة ٠

وكما هى الحال فى كل أرجاء العالم ، كان فى الهند تفاوت واسع بين الفقر والغنى ، ولكنه لم يبلغ ما يبلغه اليوم فى الهند أو أمريكا ، ففى أسفل السلم كانت هناك أقلية صغيرة من العبيد ، ويتلوهم صعودا فئة " الشودرا " ، الذين لم يكونوا عبيدا بقدر ما كانوا مأجورين على عملهم ولو أن منزلتهم الاجتماعية كأجراء ، كانت تورث ، كما هى الحال فى سائر المنازل الاجتماعية بين الهنود (١١) ٠

وقد ازداد النظام الطبقى تزمتا وتعقيدا منذ العصر الفيدى (٢٠٠٠-١٠٠٠) ق٠م ٠ ذلك أن طبيعة النظم الاجتماعية من شأنها أن تزيد تلك النظم صلابة على مر الزمن ، فضلا عن أن اجتياح الهند - من جهة أخرى - بالشعوب الأجنبية والعقائد قد زاد من صلابة نظام الطبقات ليقوم سدا قويا يحول دون امتزاج دم الهنود بدم غيرهم ، فقد كان أساس الطبقات فى العصر الفيدى هو اللون ، ثم أصبح الأساس فى العصور الوسطى الهندية هو المولد (١٢)٠

وكان على رأس الطبقات وأكبر المستفيدين من نظامها ، طبقة البراهمة ، وكان البراهمة يستمدون نفوذهم من احتكارهم للعلم ، فهم القائمون على صيانة التقاليد ، وهم الذين يدخلون على تلك التقاليد ما شاءوا من تعديل ، وهم الذين يتولون تربية النشء ، ويكتبون الأدب أو يقومون على نشر المكتوب منه ، وهم الخبراء بكتب الفيدا التى ظنوا أن الوحى قد هبط بها وأن الباطل لا يأتيها ، وينص تشريع " انو " على أن البرهمى من حقه أن يسود سائر الكائنات (١٣)٠

وأخذت قوة الكهنة تزداد من جيل إلى جيل حتى أصبحوا أطول ما عرفه التاريخ من طبقات الأرستقراطية بقاء على وجه الدهر ، ومن المعروف أن النظام الاجتماعى كلما ازداد قدما اكتسب قدرا من الصلابة والقداسة فى أعين الناس ٠ كذلك فإن مما ساعد الكهنة على أن تتزايد قوتهم جيلا بعد جيل ،اعتدالهم فى مراعاة القواعد المطلوبة منهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأنهم وجدوا شعبا أثقلته فلاحة الأرض فأخضعته لتقلبات الجو التى بدت لهم كأنها تقلبات أهواء شخصية فشغلهم ذلك كله عن النهوض بأنفسهم من الخرافة إلى نور العرفان ٠

وقد ارتبط التشريع الخلقى فى هذه البلاد بنظام الطبقات ارتباطا يكاد لا يكون له انفصام ٠ والأخلاق عندهم هى " ذارما " - أى أنها قواعد السلوك فى الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته ٠ ولكل مكان من ذلك النظام التزاماته وقيوده وحقوقه ، ولا بد للهندوسى الورع أن يسلك حياته ملتزما بهذه الالتزامات والقيود والحقوق ، ملتمسا فيها الرضى والقناعة بالطريق الذى مهد له لكى يسير فيه ولا يخطر بباله أبدا أن يتجاوز حدود طبقته إلى طبقة أخرى (١٤) ٠

والنظام الذى كانت تسير عليه الأسرة الهندية هو النظام الأبوى ، وبالتالى ، فالزوج هو صاحب السلطة ، كلمته نافذة على زوجته وعلى أولاده وعلى ما قد يكون لديهم من عبيد . وعلى الرغم مما تميزت به الزوجة الهندية من ملامح تدخلها فى دائرة الجمال ، وبالتالى أن تكون مركز جذب وموضوع حب ، لكنها ظلت فى مرتبة أدنى مما كان عليه الرجال .

وكانت أخلاقهم فى التجارة على قدر عال من رفعة المستوى ، ولو أن الملوك فى الهند الفيدية ، كما كان أقرانهم فى اليونان الهومرية ، لم يترفعوا عن اغتصاب الماشية من جيرانهم ، ولكن المؤرخ اليونانى الذى أرخ لحملات الإسكندر ، يصف الهنود بأنهم يستوقفون النظر باستقامتهم ، وأنهم بلغوا من سداد الرأى حدا جعل التجاءهم إلى القضاء نادرا ، كما بلغوا من الأمانة حدا يغنيهم عن أن يستخدموا الأقفال على أبوابهم وعن العهود المكتوبة تسجيلا لما اتفقوا عليه ، فهم صادقون إلى أبعد الحدود (١٥) . صحيح أنه يوجد فى سفر " رج – فيدا " ذكر للزواج المحرم وللتضليل وللعهد وللإجهاض وللزنا ، كما أن هناك علامات تدل على الانحراف الجنسى الذى يجعل الرجال يتصلون بالرجال ، لكن الصورة العامة التى نستمدها من أسفار الفيدا ، ومن الملاحم ، تدل على مستوى رفيع فى العلاقات بين الجنسين وفى حياة الأسرة .

الطابع التربوى للفكر الفلسفى الهندى :

درج كثير من مؤرخى الفكر الفلسفى الغربيين أن يرجعوا نشأته إلى الغرب ، على اعتبار أن التفلسف نشاط عقلى يقوم على التأمل والتجريد والتنظير ، بينما ما يسمى بالفكر الفلسفى لدى الشعوب الشرقية كثيرا ما يلتبس بالجوانب العملية . ومن المفارقات حقا أن هذا الذى يأخذه هذا الفريق من المؤرخين على الفكر الفلسفى الشرقى هو الذى يكسبه ميزة كبرى من وجهة نظرنا ويجعلنا أكثر احتفاء به فى مقامنا هذا ، فنحن إذ نؤرخ للتربية ، ننظر بعين التقدير والاحترام أكثر إلى النشاط العقلى عندما تتوثق الروابط بينه وبين حركة الواقع ومشكلات الحياة الإنسانية ، لأننا إذ نربى ، فمعنى هذا أننا نغير فى السلوك الواقع ، وبالقدر الذى يكون فيه الفكر واضعا الواقع فى الاعتبار ، ولا يحلق فى أجواء شديدة التجريد ، يكون أكثر عونا للمربين .

وإذا كان الفكر الفلسفى الهندى ، كما يلاحظ ذلك كل من درسوه ، يتسم بالثراء الشديد والشمول المحيط ، فضلا عما هو معروف عن قدمه وعمقه ، فإن طابعه التربوى هو القسمة الرئيسية فى هذا الفكر ، قديما وحديثا ، ونعنى بالطابع التربوى هنا أنه استهدف بالدرجة الأولى " تحسين الحياة " ، فقد واجه الفلاسفة الهنود العذاب الجسدى والذهنى والروحى ، وسعوا لفهم مبرراته وأسبابه ، وحاولوا تحسين فهمهم لطبيعة الإنسان والكون ، كما أرادوا استئصال أسباب المعاناة وتحقيق أفضل حياة ممكنة . وتشكل الحلول التى وصلوا إليها ومبررات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول ، فلسفات هؤلاء الحكماء الأوائل (١٦) .

وليس معنى هذا بطبيعة الحال انصراف الفلسفة الهندية عن مهمة التأمل والتنظير ، كلا ، فإذا كانت الاعتبارات العملية السلوكية تشكل جوهر هذه الفلسفة ، فإن الاعتبارات النظرية تشكل إطارها ، والأولوية هى للاعتبارات العملية السلوكية ، وتصبح وظيفة الجوانب النظرية تقديم المبرر للحل المختار للمشكلة السلوكية ، ولعل مثالا عمليا يوضح هذا .

فالمشكلة المركزية للكم الأكبر من الفقراء هى ما يعانونه من ألم وعذاب نتيجة تلك الهوة الواسعة بين ما يريدون وبين ما يملكون ، فإذا كانت الثروة المادية أهم وسيلة لحصول الإنسان على ما يريد أو بعضه على الأقل ، فماذا يفعل هؤلاء ، وهم لا يملكون عادة ثروة تتيح لهم الحصول على ما هم بحاجة إليه ؟ إن حل هذه المشكلة يكمن فى مبدأ التطابق بين الرغبة والإمكانية ، أو على أقل تقدير ، تضييق الهوة إلى أدنى مسافة ممكنة .

فى بعض الإيديولوجيات ، يركزون على توفير الثروة المادية فى أيدى الفقراء ، وهذا سبيله " ثورة سياسية " ، لكن الحل الذى ترتأيه الفلسفة الهندية ، يتركز فى تقليل الرغبة .. فى بث الزهد .. فى القناعة ، وأمور مثل هذه يحتاج الأمر إلى إقناع ، وتأمل ، ويحتاج إلى تدريب ورياضات نفسية وروحية ، أو قل بصريح العبارة ، الحل هنا تربوى بالدرجة الأولى . ويستتبع هذا التعرف بعمق على طبيعة الإنسان وفهم النفس والوعى بالذات ، تمهيدا لممارسة ضبط النفس والسيطرة على الرغبات وكبح

جماحها ، ومن هنا أصبحت الممارسة العملية للفلسفة الهندية . فى أحسن صورها . هى فن العيش فى إطار السيطرة الكاملة للمرء على ذاته (١٧) .

وهناك جانب آخر فى الفلسفة الهندية مما يؤكد طابعها التربوى . هو أمر تقترب فيه إلى حد كبير من الفلسفة البراجماتية ، وإن كان المبدأ الذى تقوم عليه هنا ليس مجرد " المنفعة " بالمعنى المادى المباشر ، وإنما هو جعل الممارسة العملية هى المحك النهائى للحقيقة ، والمقصود بالممارسة العلمية هنا مقدار الفعالية فى تحسين نوعية الحياة ورفع المعاناة (١٨) ، فإذا كانت هناك وجهتين من النظر متناقضتين أمام الإنسان لا يستطيع الإنسان أن يقبلهما معا ، فوفق أى مقياس يختار بينهما ؟ هناك فى الفلسفة معيار الاتساق والمنطق ، لكنه هنا لا يستحب ، حيث يتقدم معيار " التجربة " و " الممارسة العملية " ليعلو على المبدأ المنطقى .

ومن شأن وضع التركيز الإيجابى فيما يتعلق بتبرير فلسفة ما على التجربة أكثر منه على المنطق (وإن لم يعن ذلك استبعاد المنطق تماما) من شأنه أن يقتضى وضع الفلسفة موضع التطبيق أو الممارسة ، وذلك يعنى فى الهند ابتكار طريقة لتحقيق حياة خيرة ، تخلو من العذاب . والطريق هو جزء من الرؤية ، وإذا لم يكن من الممكن اتباع طريقة تحقيق أهداف الرؤية فإن هذه الأخيرة ينظر إليها على أنها غير مناسبة . والقول " جيد نظريا ولكنه ليس كذلك عمليا " هو ملاحظة بحاجة إلى التحفظ ، عندما تطبق على فلسفات الهند ، فالجيد نظريا غالبا ما يكون جيدا عمليا كذلك (١٩) .

ومن أكثر المبادىء الفلسفية الهندية قربا من الأديان السماوية ، ذلك المبدأ الذى يؤكد على سيادة العدالة الأخلاقية الكلية إلى الدرجة التى تكاد ترادف فيها المبدأ الإسلامى المعروف الذى تعبر عنه الآية القرآنية الكريمة " من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " . فالمسئولية الأخلاقية معلقة بمقدار سعى الإنسان نحو الخير ونحو الفضيلة ، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ، فمثل هذا المبدأ من شأنه أن يحث الإنسان على أن يحرص على التزام الصراط المستقيم ، ومن شأنه أن يهب العزاء للحزانى والمظلمين ، إذا وقع عليهم ظلم وجور ، فيد العدالة لابد أن تنصفهم ، ولا بد أن تنتقم ممن أوقع بهم الإيذاء والظلم .

الفيـــدا Vidas :

هو أقدم كتاب دينى هندى معروف • وليس هذا الكتاب المقدس كتابا هنديا أصليا ، وإنما هو كتاب (هندو آرى) ، حمل الفاتحون عناصره معهم إلى وادى (البنجاب) المفتوح حيث فرضوا تعاليمه على الوطنيين فرضا ، وإذا فهو لا يمثل العقلية الهندية ، ولا يصور المدنية القديمة التى كانت زاهدة فى تلك البلاد قبل وجوده فيها بأكثر من خمسة عشر قرنا ، بل بالعكس ، كثيرا ما يجد فيه القارىء صورا عقلية واجتماعية هى على طرفى نقيض مع الصور التى كشفها الأثريون حديثا للهند الملحية الغابرة • وفوق ذلك ، فهو مكتوب باللغة السنسكريتية ، التى لم تكن معروفة عند الهنود الأصليين من غير شك ، والتى هى لغة الآريين وحدهم ، غير أن هذا الكتاب لا يزال هو أقدم المستندات العلمية المعتمدة فى تاريخ الهند (٢٠) •

ولكلمة (فيدا) عدة معان أدقها : العلم عن طريق الدين بكل ما هو مجهول •

وينقسم الفيدا إلى أربع مجموعات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى باختلاف الموضوع الذى تعالجه ، فالأولى تسمى " ريج فيدا Rig Vida " ، الفيدا النارية ، أو الفيدا المنسوبة إلى النار • وهو يصف الحياة الاجتماعية الأولى لطائفة الآريين الهنود وحياتهم البدوية ، وآراءهم البسيطة فى الله وفى الكون والإنسان • والسفر قسمان ، أولهما أدعية وصلوات وتراتيل شعرية ، والآخر يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية •والثانية : " ياجورا فيدا Yajur Veda " ، الفيدا الهوائية أو المنسوبة إلى الهواء ، وتضم مجموعتين تدعى إحداهما بالياجورا فيدا البيضاء ، والأخرى بالياجورا فيدا السوداء ، وهذا السفر خاص بمعرفة الصيغ الخاصة بالقرابين ، وهو يصور الحياة المتطورة للآريين ، بعد نضوجهم الفكرى ، وبعد أن حدثت تغييرات شتى فى حياتهم البسيطة (٢١) •

والمجموعة الثالثة " ساما فيدا Sama Veda " ومعناها الفيدا الشمسة أى المنسوبة إلى الشمس ، وهى أيضا قسمان ، أحدهما مزامير دينية يتغنى بها فى بعض المناسبات (منترا) ، ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بالعباد والواجبات الدينية براهمانا • وقد ألفت هذه المجموعة لأداء المراسيم الدينية ، وفيها نجد أغانى كثيرة تؤدى بنغمات مختلفة ، كذلك نجد فيها إشارات لأهمية الرقص• والمجموعة الرابعة "

أثارا فيدا Athara Veda " . وربما جاءت التسمية نسبة إلى حكيم من حكماء الهند يدعى " أثارا " ، وهى أيضا قسمان ، الأول يحتوى على أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر والأرواح الشريرة المدمرة والخبيثة (تترا) ، ويشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية (براهمانا) .

ولعل أهم ما أضافه الآريون إلى الفيدا ذكريات المعاناة الطويلة ، خلال ترحل لا يتوقف ، وقتال لا ينتهى ، وصراع مع الموت والحياة ، ومع الأحياء والأموات ، على السواء ، بل هو صراع مع الأرواح والأشباح ، ومع النور والظلام ، ثم هو صراع بين الإخوة فى الأرض الجديدة (شمالى الهند) . ولعل هذا الصراع الأخوى كان عامل صهر للأخلاط والأوشاب الإنسانية التى لحقت بهذه القوافل المهاجرة لتصنع منها الكيان القادر على السيطرة فى أرض الاستقرار ، ولتساعد على امتزاج الفكر الحضارى بترانيم الغزاة فى تراث إنسانى طبعه الزمن بطابع القداسة ، بالرغم من غلبة الأسطورة ، وانبساط الخيال ، ودغدغة المشاعر الدنيا (٢٢) .

وكان المقصود بالفيدا أن تستظهر ، وكانت التلاوة من الذاكرة فى الأصل ، إجراء دينيا ، ونحن نتحدث اليوم عن (الحفظ عن ظهر قلب) ، وليس عن ذهن أو عقل ، ولم يعلم أى طفل قط كيف يقرأ صلواته . وهذا الاستظهار كان بالغ الأهمية لدرجة أن الفيدا لابد أنها قد تنوقلت بالفم (ويتوقف الحفظ عن ظهر قلب على ممارسة شفوية) ، حتى أنها لم تسجل على الورق إلى أن مضى وقت طويل بعد أن صارت الكتابة واسعة الانتشار فى الهند . ولما كان هذا النسخ من المحتمل أن يكون قد حدث فى وقت متأخر يرجع إلى القرن التاسع ق.م فإنه يمكننا أن نحكم إلى أى مدى اعتمد الفكر الهندى القديم على ذاكرة شعبية . لقد أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاعتماد الطويل على الرواية الشفهية يجعل من العبث الادعاء بأن الفيدا ، التى كان من المفروض أنها انتقلت إلى الإنسان من الإله ، قد بقيت بدون تعديل منذ عهد غرق فى القدم (٢٣) .

ومن الأمثلة التى تبين لنا التوجه التربوى الأخلاقى لأسفار الفيدا ، قصيدة عبارة عن حوار ببين الأبوين الأولين للبشر ، هذين التوأمين من أخ وأخته ، " ياما " و " يامى " ، فياما تبذل جهدا مستميدتا بغية الإيقاع بياما كى يضاجعها جنسيا ، مغرية له بأن فى

هذا الاتصال الجنسى مصلحة مؤكدة من حيث التواصل السلالى البشرى ، لكن ياما لا يستجيب على أساس أن الوازع الأخلاقى يقف حائلا بينه وبين مثل هذا السلوك ، إذ كانت القواعد الأخلاقية تحرم الاتصال الجنسى بين أفراد الأسرة الواحدة ، ولكن القصيدة مع الأسف لا تكتمل (٢٤) .

ونود أن نلفت النظر إلى أن هذا الحس الأخلاقى العالى الذى نلمسه فى الفكر الهندى إنما هو نتيجة طبيعية لهذا التوجه والاهتمام الدينى الواضح عندهم ، على الرغم من أن هذا التوجه لا ينبع من دين سماوى وإنما من دين وضعى ، وهذا ربما يشير إلى أن الفطرة الإنسانية متشوفة بطبيعتها ، عندما تصفو ، إلى التدين القائم على الأخلاق المستقيمة . وحتى يتبين لنا هذا التوجه الدينى فلنطالع معا جزءا من قصيدة دينية هى " ترنيمة الخلق " ، حيث تفوح منها رائحة التقى والورع ، والإيمان (٢٥) :

لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السماء الوضاءة
لم تكن هناك ، كلا ولا كانت بردة السماء منشورة فى الأعالى ،
فماذا كان لكل شىء غطاء ؟ ماذا كان موئلا ؟ ماذا كان مخبأ ؟
أكانت هى المياه بهوتها التى ليس لها قرار ؟
ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود .
ولم يكن فاصل بين النهار والليل
و " الواحد الأحد " لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيز حتى اليوم ....

اليوبانشادات The Upanishads :

ويرى البعض أن أسفار اليوبانشاد هى أقدم أثر فلسفى ونفسى توافر لشعب من الشعوب ، ذلك أن القارىء لها يمكن أن يلمس كيف أنها تعكس جهدا يتميز بالكثير من الدقة قام به إنسان على قدر كبير من الحرص على الدأب ، هذه الدقة وهذا الدأب إنما هما سعيا لفهم العقل وفهم العالم والعلاقة التى بينهما (٢٦) .

والتحليل اللغوى للكلمة يظهر أنها تتكون من جزئين أولهما " يوبا " والتى تعنى " بالقرب " ، وثانيهما " شاد " ، والتى تعنى " يجلس " ، تعبيرا عن أن هذه الأسفار هى محاورات بين معلم وتلاميذه ، فهى إذن دروس تعليمية ، تدور حول مسائل الحياة والكون والإنسان ، المحاور الأساسية للفكر الإنسانى ، والتى على ضوئها يسير ويعمل ويتعامل مع غيره من البشر ومع عناصر الطبيعة التى تحيط به .

والأسفار تبلغ مائة وثمان محاورة ، جرت بين المعلم وتلاميذه ، ليست من تأليف شخص واحد وإنما عدد من رجال الدين والحكماء ، لا نعرف عنهم شيئا مع الأسف الشديد . ومن الغلو أن نقول أنها فى جملتها تكون مذهبا فلسفيا متسق الأجزاء ، وإنما هى جماع نظرات فلسفية ودينية .

ونجد فى أحد أسفار اليوبانشاد " سفر ميتريى " تلك النزعة الحادة فى اتجاه تربية تقوم على التقشف والزهد ، فهذا ملك ترك ملكه وراح يجوب أنحاء غابة زاهدا متقشفا عساه أن يصل إلى المعنى الحقيقى للروح وللحياة ، حتى إذا صادف حكيما له علم بالروح سأله أن يعلمه مما يعلم عن حقيقتها ، وألح عليه فى ذلك ، فإذا بالحكيم يقول له (٢٧) :

" سيدى ، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتألف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنى ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم ؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الرغبة فيه والإقبال على ما يجب النفور منه ، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها ؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى ... وإنى لأذكر من كوارث العالم جفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبى رغم ثباته .. وطغيان البحر على الأرض ... فى هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود ، ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة ؟ "

وحرص المعلمون من حكماء اليوبانشاد على أن يعلموا تلاميذهم عدم الاعتماد على " العقل " اعتمادا كليا من أجل فهم كل ما يحط بنا من مظاهر الكون والناس والإنسان ، إيمانا منهم بأن قدرة هذا العقل محدودة قياسا إلى اتساع عالم الحقيقة التى هى وراء الأشياء ، وربما نستطيع أن نعتمد على العقل ونثق بما يصل إليه من أحكام لو استخدمناه فى هذه الأشياء البسيطة المحسوسة من أجل فهمها وإدراك العلاقات بينها، لكنه يعجز عن أن يتجاوزها ليصل إلى الحقيقة الكلية المكونة لسر الكون والحياة ، فهذه لها سبيل آخر ، هو أشبه بهذا الذى يقول به الصوفية وبعض الفلاسفة المحدثين مثل " برجسون " ، هذا السبيل هو ما يمكن تسميته " بالإدراك المباشر " ، أو ما كان يسميه أستاذ الفلسفة الراحل " د ، عثمان أمين " " بالجوانية " ، وكأنها معرفة " لدنية " ،، إشراق بالمعرفة يفيض من الحقيقة الكلية نفسها على الإنسان السالك للطريق المستقيم المتجه إلى الاتصال المباشر ،

هل ابتعدنا عن التربية وحلقنا فى أجواء الفلسفة التجريدية ؟ كلا ، فالطريق إلى المعرفة المشار إليها يحتاج إلى دربة واعتياد ،، إنه طريق سلوك نسعى فيه إلى التطهر من أدران الشهوات والرغبات المادية وصور القلق والتردد ،، طريق يتطلب الصوم الطويل حتى تخفت أصوات الحس ، وتعلو أصوات الروح ، فتتجلى حقيقة الأشياء والأمور بشىء من " البصيرة " و " الحكمة " الصافية ،، ومرة أخرى ، إنه نفس الطريق الصوفى المعروف ،

والكثير من اهتمام اليوبانشاد هو فى تتبع مراحل الجدل ، وبالمثل ، فإنه من المثير أن نلاحظ التواضع الفكرى لكل من المعلم والتلميذ ، إن ما يدعون أنهم بلغوه ليس تطهيرا أو إنقاذا ، بل معرفة الطريق إلى هذه الأمور ، لقد نادى بعض العلماء بأنه " ليس من أجل النظم التى تشيدها أو من أجل الحقائق التى يمكن القول بأنها اكتشفتها أنه لابد من تقدير هذه الكتب المقدسة تقديرا عاليا ، بل تقديرها الحقيقى ، من أجل البساطة والجدية التى تعالج بها المشاكل الكبرى " ، مثل هذه المعالجة يجب أن يوصى بها بكل تأكيد فى مجال المفاضلة عن الجدل المجدب ، الذى كثيرا ما تكون المناقشات الفلسفية مقترنة به ، خاصة فى الحياة الأكاديمية (٢٨) ،

ولدخول فرد ما جماعة دينية لابد له من المرور بسلسلة من الطقوس ، تسمى " سمساكارا Samaskara ، التى تعتبر بصورة ما شكلا من أشكال التربية الدينية ، وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل ، وإنجاب طفل ذكر ، وضمان صحة الجنين . وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته ، تراعى الأم والطفل طقوسا تستمر لمدة عشرة أيام ، وتسمى طقوس النجاسة ، والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها " السمسكارا " ، هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت ليرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعاما جافا ، وإذا كان ذكرا فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه فيما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس يتركها طوال حياته (٢٩).

ويعد " الترسيم " الخطوة التالية فى " السمسكارا " ، وهو يتم عادة عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشر ، ولب الاحتفال هو أن يرتدى المرشح زى الناسك ويمسك فى يده صولجانا على خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه الأيمن ، ثم يتلو الكاهن الرسمى من " جيترى - منترا Gayatri- Mentra " ، وهى أبيات من (الريج فيدا) ، يتلوها الهندوس - وهم الطبقة العليا من المجتمع - فى جميع طقوسهم :

" فلنفكر فى روعة وجلال
الإله سافترى
حتى يلهم عقولنا "

وعلى العضو المرشح ، فى هذه الحالة أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية براهمى متفقه فى الدين ليصبح معلمه الروحى " Guru " فيعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة ، لا سيما الفيدا ، وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع ، بل أعظم مما يظهره لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحان الحياة ، فإن المعلم ، من خلال معرفته الدينية ، يهب الخلود (٣٠) .

وعلى الطالب أن يظل أعزبا تماما ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر

الدراسى الذى قد يستغرق عند البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر . وعلامة انتهائه الاغتسال طبقا للشعائر .

والسلوك الإنسانى يفترق عن غيره من أنواع السلوك لدى سائر الكائنات الحية الأخرى ، إنه سلوك " هادف " ، والسلوك الهادف ، سلوك يختلف عن السلوك الذى تسيره الدوافع الفطرية ، فهو سلوك متصور بالعقل والتفكير ، ويخطط له ، والسير على طريقه يقتضى جهادا ونضالا ومرونة وقدرة على المواصلة والاستمرار وتغيير المسار عند الاقتضاء ، ومن هنا تأتى عناية التربية الهندية ، وفقا للفكر الفلسفى الهندى بقضية الأهداف الرئيسية للحياة ، والتى أطلقوا عليها مصطلح " بوروشارثا Purushartha " (٣١) .

وهذه الأهداف تنقسم إلى أربعة أهداف تشكل فى مجموعها صورة مطابقة إلى حد كبير المقومات الأربع للحياة كما يجب أن تكون ، وهى تستجيب استجابة ذكية لمكونات الإنسان والتى لا تقتصر على الأجزاء العضوية وحدها أو العنصر الروحى وحده ، وإنما هى بدورها تمثل تكاملا أساسيا لأية حياة مستقيمة ، ولا سلوك فاضل بغير هذا التكامل ، ويتبين لنا هذا من خلال تأمل متعمق للأهداف الأربعة :

الأول هو العيش الفاضل أو الورع " ذارما Dharma " ، وبالتالى فالمدار هنا هو حول القواعد الواجب اتباعها فى علاقاتنا بالآخرين .

الثانى ، هو وسائل الحياة " أرثا Artha " وتعنى بمجموعة القواعد المفروض أن نتبعها فى تعاملنا مع أشكال وصور الثروة المادية .

الثالث ، هو المتعة " كاما Kama " ، والمدار فيه ، مجموعة من القواعد التى تنظم التعامل مع مصادر وصور واشكال المتعة والملذات المختلفة .

الرابع ، هو تحرير النفس " موكشا Moksha " ، وهو يدور حول عدد من القواعد الواجب الالتزام بها إذا أردنا تحرير ذاتنا أو تحقيقها (٣٢) .

اليـــــوجـا :

المعنى الحرفى ل " اليوجا " هو النير ، وبالتالى فإنها تهدف إلى أن يخضع الإنسان لنظام صارم من الزهد والتقشف وشظف العيش والقدرة على تحمل الآلام ، حتى تتطهر

الروح من أدران المادة ، ذلك أن المادة مصدر كل المفاسد والشرور والانحرافات ، ولا استطاعة لإنسان أن يلتزم استقامة الطريق ، إلا إذا قهر هذه المادة وأصبح سيدا لها بدلا من أن تكون هى سيدته المتحكمة فى تفكيره وسلوكه وتعاملاته .

هى إذن طريقة فى التربية الأخلاقية بالدرجة الأولى ، تزرع فى المريد الانتباه ، والتزاوج مع الروح ، وتدفعه إلى البعد عن عمل الشر فى جميع صفاته ، والتمسك بالفضيلة فى جميع مراميها ، وهى تحرم تدريبات التنفس العميق والتأمل قبل الالتزام بأخلاقيات الإنسان المحترمة ، لأن هذه التدريبات نوع من الالتزام كالصلاة ، وهى ترفض القسوة والعنف فى المعاملات ، وتحرم السرقة فى جميع صفاتها ، والرشوة والاختلاس والنصب ، والتحايل ، وإخفاء الأشياء المسروقة ، والحسد والتباغض وسرعة الغضب والحنق ، والاستغلال فى شتى صوره والتلاعب فى الكيل والميزان ، والغش التجارى فى شتى صوره ، والتغالى فى الأرباح . وهى تعلم الزهد فى ملذات النفس ، ورغباتها الملحة ، وأطماعها ، إلى ما تجمعه قوانين الأخلاقيات ، شأنها فى ذلك شأن التصوف (٣٣) .

واليوجا ، باعتبارها طريقة لتربية الإنسان ليحيا بنظام معين متميز ، ترجع فى أصولها التاريخية إلى ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام . وهذه الطريقة كانت موجودة أيام " الفيدات " و " اليوبانشاد " ، وإن كانت فى صور متفرقة ، ومضى بعد ذلك قرنان (حوالى ١٥٠ ق.م) وعندئذ جمع " باتنجالى " أجزاء المذهب من أقوال وأفعال فى كتابه المشهور " قواعد اليوجا " (٣٤) .

وإذا كانت اليوجا تستهدف تحقيق أمل الخلاص من الخطايا والتطهر الكامل ، فإن هذا لا يتحقق دفعة واحدة ، وبمجرد الرغبة والنية ، وإنما طريقه طويل ، شاق ، مجهد ، يمر عبر مراحل متعددة تتلخص فى المراحل التالية (٣٥) :

١ - " ياما " أى موت الشهوة ، بمعنى أن يمتنع الإنسان عن السعى وراء مصالحه الشخصية الدنيوية ، وعلى العكس من ذلك ، يحمل الكثير من رغبات وأمنيات بأن يفيض الخير على غيره من بنى البشر ، فهو هنا يسعى لإماتة الأنانية ، وتعزيز الغيرية فيشيع الخير بين الأرجاء .

٢ – " نياما " ، الالتزام الجاد ، الدقيق ببعض القواعد الأولية التى من شأنها أن تجعل سالك هذا الطريق نظيفا ، قانعا ، متطهرا ، دارسا ، تقيا ٠

٣ – " أساتا " وهى تعنى اتخاذ الجسد وضعا معينا سعيا لمحاولة إيقاف كل إحساس ، وهذا ما نراه كثيرا فى الصور ، أو الصور الكاريكاتورية التى تحاول أن تتخذ من اليوجا مادة وكأنها أمر شاذ وغريب !

٤ – " براناياما " ، أى تنظيم التنفس ، والمقصود من هذه الرياضة أن تجعل الممارس لا يفكر فى أى أمر آخر غير تفكيره فى عملية التنفس ، وبالتالى التخلص من كثير من الشواغل ، فضلا عن استهدافها تعويد المريد أن يعيش على أقل قدر ممكن من الهواء ، حتى ليمكنه أن يدفن نفسه فى التراب فترة من غير أن يختنق !!

٥ – " براتياكارا " ، أى التجريد ، حيث يسيطر العقل على مختلف الحواس ، وبالتالى يباعد الإنسان بين نفسه وبين كل المحسات ٠

٦ – " ذرانا " أو التركيز ، فها هنا يملأ السالك لليوجا عقله وحواسه بفكرة واحدة أو موضوع واحد وكأنه قد امتلك عليه كل شىء ، ولا يفكر فى أمر غيره ، اعتقادا بأن هذه الطريقة تدرب الإنسان على أن يحرر نفسه من كل إحساس وكل تفكير وكل شهوة أنانية (٣٦) ٠

٧ – " ذيانا " أو التأمل ، وهنا يكون المريد وكأنه يمر بحالة تنويم مغناطيسى ٠ ويذهب " باتانجالى " إلى أن هذا يمكن أن يحدث إذا حرص المريد على تكرار المقطع المقدس " أوم " ، فمن هذه الخطوة يمكن له أن ينتقل إلى " سدرة المنتهى " ، أى ذروة الطريق وغايته ٠

٨ – " ساماذى " أو تأمل الغيبوبة ، ففى هذه المرحلة ينمحى من العقل كل تفكير ، وعندما يتم تفريغ العقل من محتواه الفكرى ، يفقد الإنسان شعوره بالذات ، لأنه يكون قد وصل إلى مرحلة الفناء فى الكائن الأسمى الأعلى ، ومن العسير وصف هذه المرحلة لأحد ، فهى لا تعرف إلا بالممارسة وسلوك نفس الطريق ٠

التربيــة البوذيــة :

فى العام ٥٦٣ ق٠م ، ولد " جوتاما بوذا Gotama Buddha " ، فى سفح جبال الهملايا ، على حدود أوذ Oudh ونيبال ، وإليه تنسب البوذية (٣٧)٠ وقد تركت حياة الرجل وشخصيته انطباعا على شعوب جنوب وشرق آسيا بدرجة لم يصل

إليها أحد سواء من حيث عمق الأثر أو من حيث الاستمرارية . كان واحدا من كبار المجددين للفكر ، الذى ظلت تحيط بحياته الأسطورة والشعر . حتى لقد بدا أمام كثيرين من أتباعه وكأنه لم يكن أحد أفراد بنى البشر الفانين ! ولم تقم هذه الشخصية بالوعظ والإرشاد فحسب ، بل تميزت بعدد من الصفات النادرة فى اجتماعها فى شخصية واحدة ، وفى صدقها واتساقها من حيث القول والفعل .

وكانت وسيلة بوذا فى نشر تعاليمه - شأنه فى ذلك شأن سائر المعلمين فى عصره - هى المحاورة والمحاضرة وضرب المثل ، ولما لم يدر بخلده قط - كما لم يدر بخلد سقراط - أن يدون مذهبه ، فقد لخصه فى عبارات مركزة ، أريد بها أن يسهل وعيها على الذاكرة ، وهذه المحادثات على الصورة التى احتفظ لنا بها الرواة من أتباعه ، تصور تصويرا لاشعوريا أول شخصية واضحة الحدود والمعالم فى التاريخ الهندى . رجل قوى الإرادة ، صادق الرواية ، مزهو بنفسه ، وديع المعاملة ، رقيق الكلام ، محسن إحسانا لا ينتهى عند حد معلوم (٣٨).

ووصف بوذا بأنه كان يدير ظهره لغلظة المعاملة ، ويمتلىء قلبه بالرحمة ، فهو رحيم شفوق بكل كائن تدب فيه الحياة ، وحرص حرصا واضحا على أن يترفع عن النميمية ، كان يود أن يرد الحسنة ، والكراهية بالحب ، وإذا أسىء إليه فى النقاش أو أسىء التفاهم بينه وبين من يحاوره ، آثر الصمت : " إذا أساء إلى إنسان عن حمق ، فسأرد عليه بوقاية من حبى إياه حبا مخلصا ، وكلما زادنى شرا ، زدته خيرا " ، فإذا جاء أحمق وأهانه ، استمع بوذا وهو صامت ، حتى إذا فرغ الرجل من حديثه ، سأله بوذا : " إذا رفض إنسان أن يقبل منحة تقدم إليه ، فمن يكون صاحبها ؟ " ، فيجيبه الرجل : " إن صاحبها عندئذ هو من قدمها " ، فيقول بوذا له : " إنى أرفض يا بنى قبول إهانتك ، وألتمس منك أن تحفظها لنفسك " (٣٩) .

وتفيد الروايات التى قبلها الناس ، على نطاق واسع ، فيما يتعلق بحياة بوذا التاريخى ، جوتاما ، أنه تلقى دفعة فورية باتجاه التأمل والتركيز على مشكلة المعاناة من خلال لقاءات درامية مع المرض والشيخوخة والموت والزهد . وكان أبوه ، وهو حاكم إمارة مزدهرة ، قد قيل له إنه إذا ما عرف ابنه شرور العالم فسوف يتخلى عن

المملكة ، ويصبح زاهدا ومعلما عظيما للبشر . وقد عقد الأب ، الذى لم يكن يرغب فى فقدان ابنه على هذا النحو ، العزم على القيام بكل شىء لإبعاده عن العالم القاسى . وبناء على هذا فقد قام الملك بإمداده بكل الثروة والمباهج ، التى يمكن للمرء أن يرغب فى الحصول عليها من الحياة - القصور ، الخادمات الشابات الجميلات ، القائمات بالترفيه عنه ، زوجة جميلة ، حتى يتعود على هذا النمط من نعيم الحياة وترفها فلا يستطيع عنه فراقا ، وذلك لحمايته من التعرض لمعاناة العالم ، وصمم الأب على أن جوتاما ينبغى أن يظل بعيدا وجاهلا بالأحزان التى تحيق بالبشر (٤٠) .

لكن الإبن الأمير كان يتوق إلى أن يرى العالم على حقيقته ويختبر ما فيه ، فاستأذن أباه فى أن يتريض ، وبينما هو سائرا فى عربة ، شاهد على الطريق رجلا هرما ، رسمت الكآبة على جهه أثر الحزن وبلاء الأيام ، فسأل الأمير سائقه : من يكون هذا الرجل ؟ وقد اشتعل رأسه شيبا ، وتجعدت تقاسيم وجهه وغارت عيناه وانحطت قواه حتى أنه لا يقوى على النهوض .

وارتبك السائق ولم يستطع إلا أن يجيب بالحقيقة ، وهى أن ما شاهده الأمير إن هو إلا علامات الشيخوخة وبلوغ أرذل العمر ، على أنه كان فى مطلع الشباب حسن القوام ، قوى البنية ، حديد النظر . وأما الآن ، فقد أنهكته هموم الحياة ، وذهبت السنون بجماله وطراوته .وقد تأثر الأمير لسماعه هذه الإجابة ، إذ نبهته إلى أن لا فرح ولا سرور ولا طمأنينة تدوم بتقدم السن ، فكل شىء زائل (٤١).

وواصل الأمير مسيرته ، فإذا بمريض ملقى على قارعة الطريق يئن ويتوجع ، فسأل سائقه : ما خبره ؟ قال : إنه مريض لأن عناصر جسمه الأربعة قد اختل نظامها ، ولذلك هو مريض يتألم ، وكلنا عرضة لذلك ، فلا فرق بين غنى وفقير ، حكيم وجاهل ، وإنه ليصيب ذلك كل حى على السواء ! وبالطبع فقد آلمت الإجابة الأمير ، وإذ لاحظ السائق ذلك أخذ يستحث الخيل على مزيد من السرعة حتى ينقذ الأمير من هذه المناظر البشرية المؤلمة .

لكنهما ما لبثا أن شاهدا منظرا آخر يحمل صورة أخرى من صور الآلام البشرية التى تطفىء البسمة وتدفن السرور بين الجوانح .. رأى الأمير أربعة أشخاص يحملون جثة ، فسأل السائق : ما يحمل هؤلاء ؟ وما هذه الأكاليل من الزهور ، والناس من ورائهم حزانى مطرقين ؟ فيجيب السائق : إن رجلا قد مات ، قد تقطعت أنفاسه ، فهمد جسمه ، وذهبت عنه الحياة فسكنت أفكاره ، وهؤلاء ذووه ومحبوه يشيعونه إلى المرقد الأخير !

اضطرب الأمير اضطرابا واضحا ، وسأل : أهو وحده يموت أم أحياء العالم يلقون نفس المصير ؟ فأجاب السائق بقلب منكسر : كل حى فى العالم مصيره إلى الفناء . كل من بدأ الحياة عليه أن ينهيها ، فلا مفر من الموت ! ويسأل الأمير بصوت حزين : إذن كل ما فى العالم باطل ، فالجسم مصيره إلى التراب ، فلا استمرار للحياة !

وعندما وصل الأمير إلى قصره ، وجد زوجته فى انتظاره فى لهفة وحب واشتياق ، فبادرته بقولها : طوبى للأب الذى جاء بك ، ومباركة الأم التى ألقمتك ثديها ، ومغبوطة المرأة التى صرت لها زوجا ، فيكون رد الأمير عليها : طوبى للذين عرفوا طريق الخلاص وسلامة الضمير . ولما استدرجته ليحكى لها عما يحزنه كان رده : لقد رأيت أثر التغير فى كل مكان ، فتكاثرت هموم قلبى ، وأحزننى الأحياء . إنهم يولدون وينمون ويمرضون وأخيرا يموتون ، فلا استمرار للحياة ، فكل ما فى العالم تنغيص لها وتكدير (٤٢) .

وتبدأ موعظة " بوذا " بعرض للإفراطين اللذين يجب تجنبهما ، فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولا شىء يدفع بالعجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لا يزيد من سخطنا على كل شىء آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه لملئه ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفاء لدين . وأما الإفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس Mortification ، وطبقا لبوذا ، فإن هذا الإفراط لم يكن أكثر فائدة من الأول ، إذ أنه لا ينجم عنه فحسب

زيادة اضطراب بل يؤدى أيضا من الناحية المنطقية إلـى الفنـاء قبل اكتسـاب أيـة مـيزة حقيقية (٤٣) ٠

وكـانت طريقتـه فـى التعليم فريـدة ، لا يماثلهـا نظير ، ولـو أنهـا مدينــة بشــىء " للجوالين " أو السوفسطائيين المتنقلين الذين عاصروه فى بلده ، فكان ينتقل من بلد إلى بلد ، وفى صحبته تلاميذه المقربون ، وفى آثاره ما يقرب من ألف ومائتين من أتباعـه المخلصين ٠ ولم يكن يهتم أبدا لغده ، فكان يكتفى بالزاد يقدمـه لـه أحـد المعجبين مـن سكان البلد الذى يحل فيه ، ولقد وصمه ذات يوم أتباعه بالعار لأنه أكل فى منزل امـرأة فاجرة ٠ كانت طريقته دائما أن يقف السير عند مدخل قرية من القرى ، ويضرب خيامه فـى حديقـة أو غابـة أو علـى ضفـة نهر ، وكـان يخصـص سـاعات العصـر لتأملاتـه ، وساعات المساء للتعليم ٠

وكانت محادثاته تجرى فى صورة سقراطية مـن الأسئلة وضـرب الأمثلـة الخلقيـة والتلطف فى الحوار ، إذ كان يسوق تعاليمه فى عبارات مقتضبة يرمى بهـا إلـى تركيز آرائـه تركيزا يجعلهـا فـى صـورة مـن الإيجـار والـترتيب بحيث تقر الأذهـان ، وأحـب عباراته التعليمية إلى نفسه هى الحقـائق السـامية الأربـع ، التـى بسط فيهـا رأيـه بـأن الحيـاة ضـرب مـن الألـم ، وأن الألـم يرجـع إلـى الشـهوة ، وأن الحكمـة أساســها قمـع الشهوات جميعا (٤٤) :

١ - تلك أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن الألم : الـولادة مؤلمـة ، والمـرض مؤلم ، والشيخوخة مؤلمة ، والحزن والبكاء ، الخيبة واليأس مؤلم ٠

٢ - وتلك أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن سبب الألم ، سببه الشهوة ، التـى تؤدى إلى الولادة من جديد ، والشهوة التى تمازجهـا اللـذة والانغمـاس فيهـا ، الشـهوة التى تسعى وراء اللذائذ ، تتسقطها هنا وهناك شهوة العاطفة ، وشهوة الحياة وشـهوة العدم ٠

٣ - وتلك - أيها الرهبان - هى الحقيقة السامية عن وقـف الألـم : أن تجتـث هـذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لهـا بقيـة فـى نفوسـنا ، السـبيل هـى الانقطـاع والعزلـة والخلاص وفكاك أنفسنا مما يشغلها من شئون العيش ٠

٤ – وتلك – أيها الرهبان – هى الحقيقة السامية عن السبيل المؤدية إلى وقف الألم، والتى سبيلها ، سلوك الطريق النبيل ذى الثمانى شعب (٤٥) :

- سلامة الرأى (ساماديثى Samma Dithi) .
- سلامة النية (ساما سنكابا Samma Sankappa) الحكمة .
- سلامة القول (ساما فكا Samma Vaca) .
- سلامة الفعل (ساما كامنتا Samma Kammanta) السلوك .
- سلامة العيش (ساما أجيفا Samma Ajiva) .
- سلامة الجهد (ساما فاياما Samma Vayama) الانضباط الذهنى .
- سلامة الوعى أو الانتباه العقلى (ساما ساتى Samma Sati) .
- سلامة التركيز (ساما سماذى Samma Samudhi) .

فهذا هو الصلاح ، وهذه هى الحقيقة ، وهذا هو الدين ، والرجل المستنير ينشد هكذا(٤٦) :

لقد طال تجوالى لقد طال
وتقيد بسلسلة من الرغبات
وتعددت الولادات
وأنا أفتش عبثا وألذ بالباطل
متى تهيمن الطمأنينة على الإنسان
متى يتخلى عن مطامعه وأنانيته ؟
متى يجوز عنا الألم وننجو من الولادة ؟
لقد جاء وقت الراحة وأوجد لى موجد الذات بيتا مريحا هادئا .
فعلى أن أحطم قيود الخطيئة وأكسر جسر الآلام وأجوز بعقلى إلى النيرفانا
وهاأنذا وصلت إلى ما أتوق إليه ، وافرحتاه !

والوصف القديم للطريق هو أنه ذو ثلاث شعاب هى : الأخلاق ، والتأمل ، والحكمة ، وهى ليست ثلاثة مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلو الأخرى وإنما هى شعاب أو دروب تسير عليها جميعا فى وقت واحد ، بيد أن للأخلاق أولوية خاصة ،

فبدون الجهد الجاد فى مراعاة المبادىء الأخلاقية لن تكون ثمة ممارسة فعالـة ومؤثـرة للتأمل (٤٧) ٠

ويعبر عن القواعد الأخلاقية الخمـس الأساسية - بالنسبة للرهبـان ولعامـة النـاس على حد سواء - فى صيغة تستخدم بانتظـام فـى العبـادات الدينيـة ، أو يمكـن ترجمتهـا على وجه التقريب كما يلى : " أتعهد بالإحجام عن إلحاق الأذى بالكائنات الحية ، وأن لا آخذ شيئا لم يعط لى (أى أمتنع عن السرقة) ، وبأن أمتنـع عن الممارسـات الجنسية اللا أخلاقية ، وعن الكذب وتناول الخمر والمخدرات التى تذهب العقل " ٠

وهنـاك درجـة أكـثر تقدمـا فـى النظـام الأخلاقـى يتبعهـا البعض مـن عامـة النـاس ، وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادىء اجتماعيـة ، هـى : أن أمتنـع عن تنـاول الطعـام بعد الظهر ، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية ، وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل ، وأن لا أتزيـن بـأى نـوع مـن أنـواع الزينـة ٠ وهـذه الإضافات إلى قاعدة الحياة لعامة النـاس ، يؤخـذ بهـا فـى الغـالب أيـام العطـلات والأيـام المقدسة كتعبير عن عمق الإيمان (٤٨) ٠

والجانب الرئيسى الثانى من الطريق الذى وضع بوذا معالمـه هـو التـأمل ، فالسـلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق أو المواقـف الحقـة ، والفكـر والعمـل معـا مرتبطـان بالوجود الحق لأن تنمية الفكر الحق أو المواقف الحقـة (أو النصـائح السـديدة) - أى السليمة من الناحية الأخلاقية ، هى من أول أهداف التأمل والتـأثير المتبـادل بيـن الفكـر والعمل موجود فى الوصف المفصل للحياة البوذية بوصفها طريقا ذا الثمان شـعب التـى سبق أن أشرنا إليها ٠

اللغـــة والكتابـــة :

إذا كانت اللغة هى أداة التواصل الأساسية ، فإن الهنود فـى تـاريخهم القديم كـانوا يستخدمون فى العلم لغة لم يتيسر لهـا أن تحتل مكانـة مهمـة فـى عمليـة التواصـل بيـن النـاس وتفـاهمهم ، ومـن هنـا كـانت السنسـكريتية هـى اللغـة التـى يتعـامل بهـا العلمـاء وتدون بها الكتابـات العلميـة والأدبيـة والدينيـة ، ممـا جعلهـا لغـة منعزلـة تعيش علـى

صفحات الكتب ، ولا تتداول عبر الألسن ، مما دفع جماعات من الهنود أن يحوروا السنسكريتية إلى أشكال أخرى يستطيعون التعامل بها ٠

ولقد أخذت الهند منذ تاريخ عريق فى القدم تتعقب جذور الألفاظ وتاريخها وعلاقاتها وتركيبها ولم يظللها القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت قد اصطنعت لنفسها علم النحو ، وأنجبت من يجوز أن يكون أعظم النحاة جميعا ممن نعرف وهو " بانينى " ، وكانت دراسات بانينى ، وغيره هى الأسس التى قام عليها علم اللغات (٤٩) ٠

ومن الممكن القول أن عددا من المدن الكبرى فى الهند قد شهدت ظهور الكتابة حوالى الألف الثالثة ق٠م ، لكنها كانت كتابة على قدر من التعقيد ، إذ تألفت من ٢٥٠ إشارة متنوعة تدون بها النصوص على حجر وخزف وألواح نحاس ، ومن المؤسف أن أحدا لم يستطع أن يفك رموز هذه المدونات ٠ وعاشت هذه الكتابة عددا من القرون ، ولكن لوحظ بعد ذلك اختفاؤها فجأة من غير أن تترك آثارا على كتابات لاحقة لعهد اختفائها (٥٠) ٠

ويرجع تاريخ أقدم كتابة معروفة وصلتنا من الهند القديمة إلى القرن الثالث ق٠م ، وهى المتمثلة فى مراسيم أمر الملك آشوى (٢٧٢-٢٣٦ ق٠م) أن تنقش على الحجر ، وإن كان من المرجح أن حروف هذه الكتابة قد ظهرت فى فترة أسبق من هذا العهد ٠

ومن الملاحظات الغريبة أن الكتابة - فيما يبدو - لم تحتل المكانة التى ينبغى أن تكون لها فى تلك العهود القديمة ، الأمر الذى تختلف الحضارة الهندية فيه عن غيرها من الحضارات الشرقية القديمة ، فقد اعتمد الهنود فى تناقل وتعليم تراثهم العظيم ، من ملاحم وآداب وتعاليم وكتب مقدسة على المشافهة ، وكأنهم فى ذلك يماثلون عرب الجاهلية ، والقياس مع الفارق ، حيث لم يكن عرب الجاهلية أصحاب حضارة عظمى مثل ما كانت عليه الهند ٠ ويبدو أن السبب الرئيسى فى عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن فى تركيب المجتمع الهندى ، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمانا) كانت تعتبر أن من حقها هى فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن

تتعرف على الإنجازات العلمية والفنية . وهكذا فقد كان أفراد هذه الطبقة يتجنبون أن يدونوا معارفهم خشية أن تنتشر فى الطبقات الاجتماعية الأدنى . ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية فى القرن السادس ق.م التى صاحبتها فكرة الديموقراطية المتواضعة ، أى نشر المعرفة التى تهدف إلى غرس الفكر الدينى بين جماهير الناس (٥١) .

ومن الأسباب الأخرى التى يمكن إضافتها إلى ما سبق فى تفسير ندرة الآثار المكتوبة التى وصلتنا من الحضارة الهندية ، المادة التى استخدموها فى الكتابة عليها ، إذ استخدموا أجزاء من بعض أنواع الشجر مما لا يستطيع أن يصمد للظروف المناخية مع توالى القرون ، ففى الجنوب استخدموا لحاء شجر النخيل ، وفى الشمال كانت المادة المستخدمة هى القشرة البيضاء لشجرة تسمى " البتولا " .

صور من التعليم :

قامت فى الهند قبل الميلاد بنحو ألف سنة تقريبا مجاميع برهمية علمية تدعى باريشاد وهى تقرب مما نسميه الآن معاهد كلية ، وكان الباريشاد الواحد يضم ثلاثة من البراهمة ممن أتقنوا دراسة الفيدا . ولما تقدم الزمن ، صار الباريشاد يحوى أحد وعشرين من البراهمة المتضلعين فى الفلسفة والديانة والقانون ، فكان يذهب إلى هذه المعاهد كل من أراد أن يهب حياته للعلم بشرط أن يكون من أفراد حلقة العلم ، وهنالك كان يتعلم الفيدا بأجزائه وكل ما كان معلوما وقتئذ من القانون والفلك والفلسفة (٥٢).

وكان لدى الهنود مدارس حرة يديرها أفراد من (طبقة العلم) ويقومون بنفقاتها من عندهم . وكان التلاميذ يذهبون إليها للتعلم ويخدمون المعلمين بأجرة تعلمهم . ولم يتحتم على تلاميذ هذه المدارس أن يكونوا من طبقة البراهمة . وكان التلاميذ - عموما - يبدأون تعلم الكتابة على الرمل حتى إذا تقدموا بدأوا يكتبون على أوراق النخيل بقلم ذى سن حديدى ، ثم على ورق الشجر بالحبر (٥٣) .

واشتمل منهاج التعليم على الحساب والكتابة ، ولكن كان الهدف الأساسى فى هذا التعليم المغلف بالغلاف الدينى هو زرع الأخلاق القويمة ، ولذلك كان النظام صارما وإن لم يلجأوا إلى وسائل العقاب البدنى ، بل إلى الحرص الشديد على تكوين عادات السلوك

الصالح منذ الصغر . وبعد سن الثامنة كان يعهد بالتلميذ إلى ما يشبه (الشيخ) ، هو أحد رجال الدين ، ويصبح التلميذ جليسه يتلقى عنه النحو والفنون والصناعات والطب والمنطق والفلسفة . وكان للأستاذ على تلميذه حقوق ، فالتلميذ تابعه وخادمه ، يؤدى له الخدمات كلها ، ويبقى التلميذ مع أستاذه حتى سن العشرين من عمره ، ثم ينطلق إلى الدنيا على أساس قاعدة مؤداها أن التعليم يأتى ربعه من المعلم . وربعه من الدراسة الخاصة ، وربعه من الزملاء ، وربعه من الحياة .

وكان من حق التلميذ عندما يبلغ السادسة عشر أن يترك الأستاذ لينتقل إلى إحدى الجامعات الكبرى ، وهذه كلها قاصرة على البراهمة ، ولكن سمح للطبقة التالية بدخولها ، وفيها يتعلم الطلبة العلوم والفلسفة والقانون والرياضيات والطب والشعر ، إلى جانب التعاليم والنصوص الدينية . ونظرا لأن الهند كانوا يرون ويعلمون لا من أجل الأمور العملية ولكن للمثاليات ، فقد تشبعت ثقافتهم بالفلسفة والدين . ومست العلم والفن والتجارة مسا خفيفا (٥٤) .

وكان الطلاب الذين يساعدهم الحظ فى الدخول إلى إحدى الجامعات يتعلمون مجانا بما فى ذلك أيضا المسكن والغذاء ، لكنهم لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة . ولم يكن يسمح له بالتحدث إلى امرأة أو برؤية امرأة ، بل إن مجرد الرغبة فى النظر إلى امرأة ، كان يعد عندئذ خطيئة كبرى ، وإذا اقترف الطالب إثما جنسيا ، كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل ، وأن يجوب الآثم الطرقات ، يطلب الصدقات ، ويعلن عن خطيئته ، وكان الطلبة جميعا يطالبون كل صباح بالاستحمام فى أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجماعة ، ومدة الدراسة إثنا عشر عاما ، ويذكر أن بعض الطلبة كان يقيم بالجامعة ثلاثين عاما ، وبعضهم كان يقيم بها حتى الممات (٥٥) .

ولما كانت المرأة فى الهند ينظرون إليها باعتبارها غير كفأة لتهذيب أبنائها ، تعلم أولئك الأبناء فى الغالب فيما يسمونه المجتمع القروى . وكان لهذه المجامع شأن كبير فى نظام الهند ، فهى التى كانت تعلم الأهالى مبادىء الدين ، وفصلت لهم فى قضاياهم ومنازعاتهم وعلمتهم كثيرا من قصص أجدادهم وسردت عليهم حكايات خرافية ونوادر

وأمثالا عديدة تحوى كثيرا من أخلاق الهنود وآدابهم وتظهر درجة رقى الفكر الهندى ، ومنها مجموعة النصائح التى وضعها الفيلسوف البرهمى " بييدبا " للملك " دبشليم " فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وجعلها على ألسن البهائم والطير . ولقد ظهرت هذه المجموعة مكتوبة بالهندية فى القرن الخامس بعد الميلاد . وفى القرن السادس أرسل كسرى أنو شروان ملك الفرس " برزويه " رأس أطباء فارس إلى الهند ليحصل على ذلك الكتاب ، فاستنسخه من خزانة الملك وعاد به إلى بلاد فارس ، وهنالك ترجم إلى الفارسية ، ولقد ترجمه إلى العربية " عبد الله بن المقفع " فى زمن الخليفة المنصور العباسى وسماه كليلة ودمنة ، ومن العربية ترجم إلى اليونانية والتركية والعبرية والأسبانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية (٥٦) .

وضم كتاب كليلة ودمنة مجموعة من الحكم التى تساق وكأنها مبادىء على قدر عال من الرقى يمكن أن يهتدى بها المربون فى عملهم ، معلمين كانوا أو آباء وأمهات ، من هذه الحكم :

- من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .
- إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء ، أما الثلاثة التى تطلب فالسعة فى الرزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة .
- وأما الأربعة التى يحتاج إليها فى درك هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون ، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه ثم استثماره ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه فى الآخرة .
- إن الارتفاع إلى المنزلة الشريفة شديد والانحطاط منها هين كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق عسر ، ووضعه إلى الأرض هين .
- رب صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورايه ما يعجز عنه كثير من الأقوياء .
- بعض الحيلة مهلكة للمحتال .
- خير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلها ، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأفضل الملوك من لا يخالطه بطر ولا يستكبر عن قبول النصيحة ، وخير الأخلاق أعونها على الورع (٥٧).

ومن المرجح أن الدولة تدخلت فى التعليم العالى ، ذلك أن بعض المؤرخين يشيرون إلى جامعة (لاندا) ، وهى أشهر الجامعات بالمعاهد البونية العالية ، أنشئت بعد موت بوذا بزمن قصير ، وخصصت لها الدولة دخلا هو ما كان يجبى من مائة قرية ليصرف منها على شئون الجامعة . ويقال أنه كان يؤمها عشرة آلاف طالب ، وتحوى مائة قاعة للمحاضرات ، إلى جانب المكتبات الكثيرة الضخمة ، مساكن للطلبة ، ولها مراصد عالية تكاد تطاول السحاب ارتفاعا . وكان المستوى العلمى فيها عاليا جدا لدرجة أن الأجانب فى البلاد المجاورة ومن ذوى العلم كانوا لا يستطيعون مجاراة الطلبة فى اطلاعهم ومناقشاتهم ، فيعترفون لهم بالذكاء والثراء الدراسى ، حتى أن أحد علماء الصين ممن زاروا هذه الجامعة أعجب بها ، ومكث بها خمس سنين يناقش الطلبة ويجادلهم ويستمع إلى الأساتذة المهرة ، ويدلل على صعوبة الدراسة بها أن عدد الذين كانوا يرسبون فى الامتحانات أكثر من عدد الناجحين بالضعف (٥٨) .

ولما كان الدين هو لب الحياة الهندية ، وصميمها ، فإن العلوم التى كان شأنها أن تعاون الدين هى التى سبقت غيرها بالرعاية والنمو ، فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين . ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية صحيحة فى تركيبها ، وفى مخارج أصواتها على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة ، فقد كان علماء الهند ، كما كانت الحال فى عصور كثيرة سابقة هم كهنتها ، بكل ما فى ذلك من خير ومن شر (٥٩) .

ومن المعروف أن ما يسمى خطأ بالأعداد (العربية) إنما هى هندية ، فالهنود هم الذين ورثوا العرب الأعداد برموز عشرة ، مما كان له أثره فى تطور علم الحساب .

وقد تحتم على كل من أراد أن يكون معلما أن يدرس جميع مواد المنهج المعترف به ، وأن يكون قد قام بجميع واجبات الطالب البرهمى ، وعليه ألا يعلم إلا الأطفال الذين تسمح بتعليمهم عادات البلاد .

وكانت طريقة التدريس شفهية ، فشحنوا ذاكرة الطفل بالمحفوظات لدرجة تفوق ما يمكن تصوره أحد من مربيى اليوم (٦٠) .

وكان الطفل الهندى يبدأ الاستظهار من صغره ، فيحفظ الحروف الأبجدية ، ويستظهر كذلك نحو عشرين صفحة من اللغة السنسكريتية دون أن يفهم كلمة منها ، ومن الحفظ يجىء الشرح • وكان الغرض من ذلك أن يستظهر التلميذ الكتب المقدسة بدون تحريف فيها ، ولكنه لا يستظهرها من كتاب بل من فم معلم ، فكان المعلم يجلس فى جهة مناسبة ، وإن كان له تلميذ واحد أجلسه على يمينه ، وأما إذا زاد عدد التلاميذ ، فلهم أن يجلسوا حيث أرادوا ، وعند بدء كل درس ، يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم يجلسون ، فيبدأ المعلم الدرس بأن ينطق كلمة واحدة أو كلمتين قصيرتين فيرددها التلميذ المجاور له ، ومنه إلى تاليه ، وهكذا ، ثم ينطق المعلم كلمتين آخريين فيرددها التلاميذ بالترتيب ، ويستمر الدرس على هذا المنوال حتى يحفظ التلاميذ سطرين أو ثلاثة سطور شفهيا ، ثم يأخذ التلاميذ فى تلاوة تلك السطور بصوت جهورى حتى ترسخ فى أذهانهم ولا ينسوها ، وبعد نهاية الدرس يقبل التلاميذ قدمى المعلم ثم ينصرفون (٦١) • ولما وجد الخط لديهم كان يعطى لكل تلميذ نسخة مكتوبة باليد ، ثم يطالعونها بصوت جهورى حتى يستظهروها دون أن يتعبوا أنفسهم فى فهم معناها •

وكان النظام فى مثل هذه المدارس لينا مشفوعا بالشفقة ، إلا فى أحوال استثنائية استعمل فيها شىء من القسوة ، فقد قال " مانو " فى قوانينه : " يجب أن يتعلم الأطفال دون أن يشعروا بأى شىء يؤلمهم أو ينفرهم من التعلم ، والمعلم الذى يعرف للفضيلة معنى ، يجب عليه أن يستعمل اللطف والكلام العذب عند التدريس ، فإذا ما أذنب تلميذ ، فللمعلم أن يعاقبه بالكلام القارص ويهدده بالضرب إن هو عاد إلى ارتكاب أى ذنب ، وإذا ما جنى جناية وقت الشتاء فللمعلم أن يعاقبه بصب الماء البارد فوق رأسه !(٦٢)•

وكانت المدارس الخاصة بالأطفال فى ذلك الزمن عبارة عن مجتمعات فى الهواء الطلق تحت ظل الأشجار صيفا وتحت مظلات أو حواجز فى الشتاء أو وقت المطر ، وتعلم التلاميذ من الحساب المبادىء الأولية جدا • وكانوا يكتبون فى الرمل بعصى فى أول تعلمهم الكتابة ، ثم ارتقوا فصاروا يكتبون على سعف النخل بقطع من الحديد تشبه المسمار ، وبعد ذلك كتبوا بالحبر على أوراق أشجار مخصوصة ، وهذا الرقى فى الكتابة لم يصلوا إليه إلا قبل الإسلام بزمن يسير (٦٣) • وكان من عاداتهم المدرسية

أن يعلم التلميذ المتقدم تلميذا مبتدئا ، وكان التلاميذ يختبرون بعضهم فى استظهار القطع ، ولذلك يمكننا أن نسميها طريقة التبادل فى التعليم .

وكانت " النظافة " من أكثر مجالات التربية استئثارا بالاهتمام ، حتى أنها لتأتى فى المرتبة الثانية بعد العبادة . ولقد سن " مانو " تشريعا يستلزم تهذيب البدن ، ففى تعليماته مثلا : " يجب على البرهمى أن يستحم فى الصباح الباكر وأن يزين جسده وينظف أسنانه ، ويغسل عينيه ويعبد الآلهة " (٦٤) . والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد فى برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية ، فعلى الهندى ذى المكانة المحترمة أن يغسل جسده كل يوم ، وإنه ليشعر تقززا إذا ما لبس الثوب - بغير غسل - أكثر من يوم واحد .

المربــون :

لم يقتصر أمر التربية على من يقومون بواجب التعليم فى المدارس ، ولا على تلك المعاهد التى خصصت لإعداد بعض رجال الدين ، وإنما كان من الطبيعى أن يشكل البراهمة القوة الأكثر تأثيرا وانتشارا من حيث التربية العامة التى تنتظم جملة أبناء الشعب الهندى كبارا وصغارا ، وذلك بحكم ما كان الدين يشكله من مركزية ومحورية فى الحياة الهندية على وجه العموم .

ومن أجل أن يضفى البراهمة على أنفسهم هيبة وجلالا وتميزا عن سائر خلق الله ، وبالتالى يمكنهم هذا من ممارسة التأثير والتسيير للناس ، أشاعوا أسطورة تذهب إلى طائفة البراهمة خرجت من فم براهما Brahma ، كما خرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه ، أما أصحاب الحرف فقد انحدرت من حقويه (أو خاصرته) ، والطائفة الخادمة من قدميه (٦٥) ، فالتمييز الطبقى " قدر " طبيعى " مكتوب " لا قبل لأحد بتغييره ، وإذا كان البراهمة يقفون على قمة هذا الهرم الطبقى ، وجب على الجميع أن يمتثلوا لهم ويطيعوهم ، ويصدقوا ما يقولون .

ولكى ندرك مدى التأثير لهذا التمييز الطبقى فى تشكيل الاتجاهات وغرس القيم ، علينا أن نقارنه بنظام مجتمعى آخر عرف بشدة التمييز الطبقى ، ألا وهو المجتمع

الأوربى فى العصور الوسطى ، لكن كان هناك فرق هام ، وهو أنه كان بإمكان الجميع الانتقال إلى الطبقة الدينية ، فالفارق الأعظم هو أن الدين هنا يتخذ موقفا موحدا بالنسبة لكل الناس ، فعلى الرغم من أن ابن الصانع اليدوى ينشأ صانعا يدويا ، وابن الفلاح ينشأ فلاحا ، والاختيار الحر تقيده ، فى الأعم الأغلب ، بعض الظروف القاهرة ، فإن العنصر الدينى يقف على علاقة واحدة مع الجميع ، ويضفى الدين على كل الناس قيمة مطلقة ، أما فى الهند فإن الوضع كان على العكس من ذلك تماما (٦٦) .

ولكل طائفة واجباتها وحقوقها الخاصة ، ومن ثم فالواجبات والحقوق ليست للإنسان بصفة عامة ولكنها تتعلق بطائفة معينة ، فإذا كنا نقول " الشجاعة فضيلة " ، فإن الهنود يقولون ، على العكس ، " الشجاعة هى فضيلة طبقة الكاشترية " ، فخاصية الإنسان بصفة عامة ، والواجب البشرى ، والشعور البشرى لا وجود له عندهم ، فنحن لا نجد سوى واجبات الطائفة الخاصة وكل شىء يتجمد ويتحجر فى هذه الفروق . وفوق هذا التحجر يسيطر المصير المتقلب المتغير ، فالأخلاق والكرامة البشرية مجهولة عندهم وتلعب الأهواء الشريرة دورها كاملا . وتهيم الروح فى عالم الأحلام ، وأعلى حالة هى حالة الفناء أو الانعدام (٦٧) .

وشهدت القرى الهندية كذلك طائفة من المربين ، تفردت بهم عن كثير من البلدان الأخرى ، فبسبب ازدهار القرى والأرياف ، دبت فيها الروح الثقافية والفكرية وتقدمت إلى أقصى الحدود بحيث قد لا نجد لها نظيرا ، فلقد ظهر فى القرى مفكرون وأدباء وشعراء بكثرة . كان هؤلاء ينتقلون من قرية إلى قرية ويتجولون فى ربوعها ينشرون مبادئهم وأفكارهم . وكان هؤلاء أكبر باعث على نشر الوعى والثقافة بين القرويين على وتيرة واحدة ، بحيث تنمحى الفروق الموجودة فيها ، ولم يتخذ هؤلاء مراكز فكرية لهم فى أية قرية لأن النظام القروى لم يعرف الوحدة القومية ولم تتكون له عاصمة بخلاف الحياة المدنية ، ولذلك اضطروا إلى ممارسة حياة التجول لنشر مبادئهم . وقد أصبحت لنظرة القرويين الهنود الفلسفية للحياة سمات هامة لهم وتكونت لهم من جراء ذلك مقدرة عظيمة على التحمل والصبر ، الأمر الذى أصبح موضع دهشة الناس (٦٨) .

وبسبب انتشار تعاليمهم بين أبناء القرى والأرياف اكتسب هؤلاء مقدرة على التحمل والصبر والصمود . ومن المعروف أن طبيعة الهند الفياضة جعلت نهم - رغم كل خبراتها - متاعب شديدة وأخطارا بالغة مثل الفيضانات المتكررة والأمراض الوبائية المهلكة والمخاوف العديدة . ولكن القرويين اعتادوا مواجهة هذه المشكلات والمتاعب بكل صبر ولم يبدوا أى شكوى . وليس معنى ذلك أنهم اتكلوا على القضاء والقدر وسلموا زمام أمرهم إلى القدر ليتصرف كما يشاء معهم ، بل حاولوا بما أعطوا من المقدرة على التأمل والتفكير والصبر والصمود تحويل مجرى الحياة لصالحهم بطرق حكيمة هادئة ، مستخدمين كل الوسائل المادية ، مع إيمان كامل بالآلهة . وإذا واجهوا الفشل - رغم كل الجهود - لم يكونوا ثائرين على الطبيعة والآلهة ، بل كانوا يتحملون المتاعب (٦٩) .

ولم يكن الفلاح الهندى - بسبب تفكيره وتأمله - يشكو قلة الطعام أو ندرته أيام المحن والمتاعب ، بل يستغرق فى التأمل والتفكير فى أسرار الحياة ، وفك غوامضها . ويرى بعض الباحثين أن الطبيعة والأجواء قد أملت عليه هذه الظاهرة لأن القروى بسبب ثقافته الدينية العالية التى كان يتلقاها من المعلمين المتجولين قد نال حظا كبيرا من القناعة والزهد ، وتدرب إلى درجة كبيرة على تحمل المشاق . وهذه الظاهرة لم تزل موجودة فى القرى والأرياف .

ومن منهج هؤلاء المعلمين من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين أنهم كانوا ينشرون تعاليمهم بين القرويين من الفلاحين والعمال ، وأصحاب المهن الحرة البسطاء فى الفهم فى صورة قصصية أسطورية . كانوا يقصون عليهم القصص والأساطير حافلة بتعاليم الأخلاق والدين والقيم العليا . وكانوا يشرحونها بضرب الأمثلة من خلال حياة آلهتهم وشخصياتهم الدينية الأسطورية . ومن هنا نجد ملامحهم وأساطيرهم حافلة بالأخلاق والمبادىء والمثل العليا ، لأنها مما صاغتها ألسنة هؤلاء المتجولين . ومن هنا تعود القرويون على مذاكرة ملاحمهم يوميا بعد فراغهم من مهنهم متجمعين فى مكان (٧٠) .

الهـــــوامـــش

١- كامل سعفان : معتقدات آسيوية ، دار الندى ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٤٧

٢- المرجع السابق ، ص ١٤٨

٣- محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص٩٠

٤- المرجع السابق ، ص ٩١

٥- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٦- أ٠و٠ف٠تomlين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٠

٧- المرجع السابق ، ص ١٧١

٨- كامل سعفان ، معتقدات آسيوية ، مرجع سابق ، ص ١٤٨

٩- توملين : فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٧٢

١٠- جفرى بارندر (تحرير) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣) ، مايو ١٩٩٣ ، ص ١٣٧

١١- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة زكى نجيب محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، م١ ، ج٣ (الهند وجيرانها) ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٨

١٢- المرجع السابق ، ص ١٦٤

١٣- المرجع السابق ، ص ١٦٦

١٤- المرجع السابق ، ص ١٧١

١٥- المرجع السابق ، ص٢٧

١٦- جون كولر : الفكر الشرقى القديم ، ترجمة كامل يوسف حسين ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٩٩) ، يوليو١٩٩٥ ، ص ٢٧

١٧- المرجع السابق ، ص ٢٩

١٨- المرجع السابق ، ص ٣٠

١٩- المرجع السابق ، ص ٣١

٢٠- محمد غلاب : الفلسفة الشرقية ، مرجع سابق ، ص ٩٢

٢١- المرجع السابق ، ص ٩٣
٢٢- كامل سعفان : المعتقدات الآسيوية ، مرجع سابق ، ص ١٥٣
٢٣- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٧٣
٢٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٤٠
٢٥- المرجع السابق ، ص ٤١
٢٦- المرجع السابق ، ص ٤٣
٢٦- المرجع السابق ، ص ٤٥
٢٨- توملين : فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ١٨٥
٢٩-بارندر : انمعتقدات الدينية ، مرجع سابق ، ص ١٤٤
٣٠- المرجع السابق ، ص ١٤٥
٣١- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ٧٢
٣٢- المرجع السابق ، ص٧٣
٣٣- عباس المسيرى : اليوجا والتصوف والرهبانية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٤
٣٤- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٦٢
٣٥- المرجع السابق ، ص ٢٦٣
٣٦- المرجع السابق ، ص ٢٦٤
٣٧- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٢١١
٣٨- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٧٤
٣٩- المرجع السابق ، الصفحة نفسها
٤٠-كولر : الفكر الشرقى القديم ، ص ١٨٨
٤١- إنجيل بوذا ، ترجمة عيسى سابا ، دار صادر بيورت ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤
٤٢- المرجع السابق ، ص٢٥
٤٣- توملين ، فلاسفة الشرق ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦
٤٤- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص٧٥
٤٥- كولر : الفكر الشرقى القديم ، مرجع سابق ، ص ١٩٧
٤٦- إنجيل بوذا ، ص ٥٠
٤٧- بارندر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥

٤٨- المرجع السابق ، ص ٢٢٦

٤٩- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١، ج٣ ، ص ٢٨٣

٥٠- ألكسندر ستيبتشفيتش : تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد م ٠ الأرناؤوط ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (١٦٩) ، يناير ١٩٩٣ ، القسم الأول ، ص ٥٥

٥١- المرجع السابق ، ص ٥٦

٥٢- أحمد فهمى القطان : تاريخ التربية ، الجزء الأول : التربية قبل الإسلام ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، طنطا ، ١٩٢٣ ، ص ٩٥

٥٣- سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٨٢

٥٤- المرجع السابق ، ص ٨٣

٥٥- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٨٧

٥٦- أحمد فهمى القطان ، تاريخ التربية ، مرجع سابق ، ص ٩٨

٥٧- المرجع السابق ، ص ٩٩

٥٨- سعد مرسى أحمد ، تطور الفكر التربوى ، مرجع سابق ، ص ٨٣

٥٩- ديورانت : قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ٢٣٥

٦٠- أحمد فهمى القطان ، تاريخ التربية ، ص ١٠٢

٦١- المرجع السابق ، ص ١٠٣

٦٢- المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٦٣- المرجع السابق ، ص ١٠٤

٦٤- ديورانت ، قصة الحضارة ، م١ ، ج٣ ، ص ١٨٦

٦٥- هيجل : محاضرات فى فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص ١٠٨

٦٦- المرجع السابق ، ص ١٠٩

٦٧- المرجع السابق ، ص ١١٠

٦٨- محمد إسماعيل الندوى : الهند القديمة ، حضاراتها ودياناتها ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٦٧

٦٩- المرجع السابق ، ص ٦٨

٧٠- المرجع السابق ، ص ٦٩